جاليلي شاحر *

بصيغة ثالثة: الحوار الألمانيّ- اليهوديّ وسؤال العربيّة

I

يجب طرح السؤال حول العلاقات الألمانيّة-الإسرائيليّة كما يجب. يحتاج هذا السؤال إلى صيغة، أي إلى صياغة مناسبة. عندما نُقدم على طرح السؤال حول العلاقات بين ألمانيا وإسرائيل تكون أسئلتنا تاريخيّة، طبعًا، وتكون لها ترسّبات وتعقيدات كثيرة. لا يمكننا أن نفصل هذا السؤال عن تاريخ الشعبين، الألمانيّ واليهوديّ، في القرون الأخيرة. لهذا السؤال التاريخيّ محطات وعلامات كثيرة في حركة الإصلاح، وعصر الثورة وفترة التحرّر، والازدهار الثقافيّ لليهود في ألمانيا، والوطنيّة اليهوديّة خلال فترة الحرب العالميّة الأولى، والفكر الصهيونيّ في ألمانيا، إلى جانب المشاريع النقديّة والفوضويّة للمفكرين اليهود والألمان. كما لا يمكن فصل هذا التاريخ عن الخطاب اللاساميّ والعنصريّة، ومشاريع الإبادة خلال الحرب العالميّة الثانيّة. كذلك، رؤية هذا التاريخ في ضوء مشاريع التأهيل والتعويض الألمانيّة في العقود الأخيرة، والهجرة اليهوديّة إلى ألمانيا، وخصوصًا هجرة إسرائيليّين إلى برلين في العقد الأخيرة، والتي ستكون بمثابة فصلٍ جديد في تاريخ الشعبين.

السؤال التاريخيّ هو سؤال «السنين القادمة». سؤال التاريخ هو دومًا سؤال المستقبل: كلمة تاريخ بالألمانيّة، Geschichte، تعبّر عن هذا الأمر بوضوح: التاريخ هو طريقة جمع وإرسال كلّ الأشياء. وإلى أين ترسل الأشياء؟ تُرسل إلى المستقبل. التاريخ، كذلك، هو ذلك الحيّز المفتوح، الذي ما زال مجهولاً. لم يُحسم السؤال التاريخيّ حول العلاقات بين الألمان واليهود، وما زال مطروحًا حتى الآن، في نهاية العقد الثاني من القرن الـ٢١، كسؤال المستقبل. قد نكون بحاجة لأنّ ندقّق في صياغة السؤال؛ سؤال العلاقات بين ألمانيا وإسرائيل هو سؤال تاريخيّ

*محاضر متخصص في الأدب المقارن في قسم الأدب في جامعة تل أبيب.

في تلك السنوات (ستينيّات القرن الماضي)، عبّر الشاعر اليهوديّ (الرومانيّ الأصل) باول سلان (١٩٢٠-١٩٧٠) عن موقفه تجاه سؤال الحوار الثنائيّ بين الألمان واليهود بطريقة أكثر تعقيدًا. حسب رأيه، هذا الحوار الثنائيّ بين الألمان واليهود يملك مقومات للحياة، لكن عليه أن يكون كتقديم إفادة عن الحوار الثنائيّ الفارغ والزائف وكمقاومة له. على الحوار ذاته أن يقتحم مبنى الجملة الألمانيّة ويفككها ليُظهر حالات النقص فيها، وحالات فقدان وصمت اليهوديّة.

ذو ترسّبات عميقة في الماضي، ولذلك فهو متعلّق بثقافة تكوِّنها الذاكرة والإفـادات، لكن له مستقبل أيضًا. وماذا يخبّئ هذا المستقبل؟ لم يُسمح لنا بالتنبؤ بالمستقبل.

يمكننا فقط أن نفترض أنّ هذا المستقبل موجود بين أيدي الجاليات اليهودية في ألمانيا والإسرائيليّين في برلين، وكذلك المهاجرين الألمان الذين يعيشون في تل أبيب والقدس. ولكن، هل هذه هي الصورة الصحيحة للمستقبل؟ هل هذه هي الصيغة الصحيحة لطرح السؤال عن تاريخ الألمان واليهود وافتراض مستقبله؟

عندما نبحث عن الصيغة الصحيحة للسؤال حول العلاقات بين ألمانيا وإسرائيل، وهو، تاريخيًا، سؤال حول العلاقات الممتدّة بين الألمان واليهود، نبحث عن صيغة لسؤال صعب. علينا أن نصوغ السؤال كما يجب، وعلينا الانتباه قبل كلّ شيء، فعندما نسأل: «ما معنى العلاقات بين الألمان واليهود؟» نسأل، في الوقت ذاته، سؤال اللغة. نسأل عن الصلة، عن العلاقات، عن التناقضات بين اللّغتين الألمانيّة والعبريّة. لهذا السؤال «تاريخ» خاصٌ به، فقد تحوّل منذ فترة مارتن لوثر، فترة الحركة الإصلاحيّة البروتستانتيّة وترجمة التوراة إلى اللغة الألمانيّة، إلى برنامج الحياة المشتركة بين اليهود والألمان. ما هي لغة التجلي الإلهيّ؟ وما هي لغة الاختيار (لغة الشعب المُختار)؟ وكلام الله، بأي لغة يكون؟ هل حملت اللغة الألمانيّة، منذ ترجمة التوراة، اللغة العبريّة فيها لتكون لغتها؟ لن نحسم هذه الأسئلة، لكننا نشير إليها فقط- لأنّ سؤال اللغة هو السؤال الحاسم.

لكن، هل عند طرحنا لسؤال العلاقات بين ألمانيا وإسرائيل، كسؤال تاريخيّ، وبالتالي كسؤال عن الصلات بين الألمان واليهود، وكسؤال عن اللغة المشتركة التي تفرق بينهم، نقوم بطرح السؤال كما يجب؟ هل نسينا شيئًا ما؟ وعندما نطرح السؤال الألمانيّ-اليهوديّ كحوار بين اثنين، ألسنا بذلك ننكر مكان/لامكان الثالث؟ الحوار الثنائيّ ينكر حقيقة وجود أحد إضافيّ، لم يُدعَ للحوار بعد. لذلك، فالسؤال حول علاقات ألمانيا-إسرائيل، والسؤال حول العلاقات بين الألمان واليهود، يستوجب صيغة أخرى، صيغة تدعو إليها ثالثًا. ما/من هو/هي هذا/ه الثالث/ة؟

لا يمكننا أن نفصل تاريخ اليهود والألمان عن سؤال اللغة، الذي اتخذ صيغة سؤال الحوار الثنائيّ. كان مارتين بوبر وفرانس روزنتسفايج المنظران الأساسيّان للحوار الثنائيّ في النصف الأول من القرن العشرين. سُمعت لاحقًا أصوات أخرى، أكثر تشكيكًا، أصوات سخرت من الخَيار الحواريّ، وخصوصًا من إمكانية تجديد الحوار بين الألمان واليهود. بالنسبة لبوبر وروزنتسفايج كان الحوار الألمانيّ-اليهوديّ سيتحقّق بإنتاج لغة التوراة من جديد بالألمانيّة، وقد أمِلا بتحقيق الأمر عبر ترجمتهما بنفسهما للكتاب اليهوديّ المقدّس (تناخ) في عشرينيات القرن الماضي. قبل ذلك بسنوات، نجح بوبر بتحرير وترجمة مجموعة حكايات يهوديّة للّغة الألمانيّة، بينما أهدى روزنتسفايج اللّغة الألمانيّة ترجمة رائعة لأشعار يهوذا اللاوي (سنتوسّع في هذا الشأن لاحقًا). عارض باحث القبالة اليهودية جرشوم شالوم، منذ شبابه، مفاهيم الحوار الثنائيّ لأنّه اعتقد أنّ اليهود سيجدون في اللغة الألمانيّة أرضًا خصبة لتقرير المصير والنمو الروحيّ. عبّر شالوم، بعد الحرب العالميّة الثانية، عن مخاوفه عبر رسالة مفتوحة كتب فيها ضد الفرضيات الزائفة حول «الحوار» بين اليهود والألمان. وبحسب جرشوم شالوم، ربما أصغى اليهود للألمان، لكن عندما تكلّم اليهود بكلام يهوديّ لم يصغِ الألمان لهم. تكلّم اليهوديّ، لكن كلامه كان «كالصرخة في الفراغ». بهذا المعنى، كان الحوار الألمانيّ-اليهوديّ فارغًا وزائفًا.

في تلك السنوات (ستينيّات القرن الماضي)، عبّر الشاعر اليهوديّ (الرومانيّ الأصل) باول سلان (١٩٢٠-١٩٧٠) عن موقفه تجاه سؤال الحوار الثنائيّ بين الألمان واليهود بطريقة أكثر تعقيدًا. حسب رأيه، هذا الحوار الثنائيّ بين الألمان واليهود يملك مقومات للحياة، لكن عليه أن يكون كتقديم إفادة عن الحوار الثنائيّ الفارغ والزائف وكمقاومة له. على الحوار ذاته أن يقتحم مبنى الجملة الألمانيّة ويفككها ليُظهر حالات النقص فيها، وحالات فقدان وصمت اليهوديّة. طالب سلان الشعر الألمانيّ (والشعر عمومًا) بأن يكون «يهوديًا أكثر من اللازم» (Verjuden)، أي

مرحلة الاستشراق هي مرحلة معروفة في تاريخ الفكر والشعر باللغة الألمانيّة، مرحلة بدأت في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، عندما بدأ مثقفون ألمان بإبداء اهتمام كبير بالشرق: باحثون وشعراء ألمان اهتموا بالكتب الدينيّة اليهوديّة والتوراة العبريّة، بالقرآن والشعر الإسلاميّ، وطبعًا بثقافات الهند والصين. ولن نبالغ إن قلنا إنّ الاهتمام الفيلولوجيّ، والشعريّ، والثيولوجيّ والسياسيّ في الشرق كان أحد أهم أركان مشاريع التنوير والرومانسيّة في ألمانيا، وترجمة وشرح يوهان جوتفريد هردر لـ«نشيد الأنشاد» العبريّ، إلى جانب اهتمامه العميق بتاريخ النبي محمد، دليل على هذا الاتجاه.

أنّ على الحوار أن يتشوّه وينحني وينكسر بطريقة يهوديّة. اعتقد سلان، كما ورد في ملاحظاته بـ«خطاب المريديان» (١٩٦٠)، أنّه فقط عندما تتشوّه اللغة الألمانيّة وتنحني وتتحوّل إلى كلمة غريبة، يمكنها أن تصير دليلاً على مأساة اليهود.

من الواضح أنّ حوارًا في مثل هذه الصيغة الراديكاليّة لشعر سلان، صيغة الإفادة، يتعارض مع ما اتُفق عليه لغويًا بالنسبة لعلاقات ألمانيا-إسرائيل أو علاقات الألمان واليهود. فمأساة بهذه الضخامة، وأزمة بهذا العمق، لا يمكن تغطيتها بتعويضات وكلام منابر عن الندم والغفران. وما تبقى فعله هو تجميع وبناء بطيء للّغة الإنسانيّة التي تلفت. وكما سبق وذكرنا، لا يمكن الاكتفاء بكرم التعويضات التي أخذت، في السنين الأخيرة، على شكل هدايا ألمانيّة مشبوهة، مثل الغواصات النوويّة.

لكننا سبق واتفقنا على أنّ الصعوبة الأساسيّة في سؤال العلاقات بين ألمانيا وإسرائيل، أو في السؤال التاريخيّ الصعب حول الحياة المشتركة للألمان واليهود، تكمن في مجرّد الانسحاب نحو مجال الحوار الثنائيّ، أي في أن صيغة السؤال تنكر مجدّدًا وجود الثالث، ذلك الممنوع من دخول المجال المريح للحوار الثنائيّ بين «أنا» و«أنت». تُدار علاقات ألمانيا-إسرائيل منذ فترة في المجال المريح للحوار الثنائيّ، أي في حيز الاتفاق المؤسّس على إلغاء الثالث. عودة ذلك الجسم الغريب، ذلك الـ«هو» الذي ليس «أنا وأنت»، هو حدث اقتحام يمكنه أن يهزّ أركان الحوار الثنائيّ الزائف. علينا أن نفترض علاماته ضمن هذا الإرث ذاته. لكننا كنا قد تساءلنا: ما هو ومن هو هذا الثالث؟

II

مرحلة الاستشراق هي مرحلة معروفة في تاريخ الفكر والشعر باللغة الألمانيّة، مرحلة بدأت في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، عندما بدأ مثقفون ألمان بإبداء اهتمام كبير بالشرق: باحثون وشعراء ألمان اهتموا بالكتب الدينيّة اليهوديّة والتوراة العبريّة، بالقرآن والشعر الإسلاميّ، وطبعًا بثقافات الهند والصين. ولن نبالغ إن قلنا إنّ الاهتمام الفيلولوجيّ، والشعريّ، والثيولوجيّ والسياسيّ في الشرق كان أحد أهم أركان مشاريع التنوير والرومانسيّة في ألمانيا، وترجمة وشرح يوهان جوتفريد هردر لـ«نشيد الأنشاد» العبريّ، إلى جانب اهتمامه العميق بتاريخ النبي محمد، دليل على هذا الاتجاه. دليل آخر على هذا الاتجاه، هو

المشهد المعبّر: نتنياهو يطل من غواصة نووية ألمانية.

لكن، كيف يعود الثالث؟ كيف يُدعى إلى المحادثة؟ كيف يدخل ويبدأ بالكلام؟ عندما نتكلم عن الحوار الألمانيّ-اليهوديّ نصغي للّغة العربيّة التي تعود كظلٍّ للّغة العبريّة، أو على شاكلتها، للدّقة. هل تختبئ اللغة العربيّة في الحوار الألمانيّ اليهوديّ خلف اللغة العبريّة، كظلّ، أم أنّها مختبئة فيها، في داخلها؟ تعود العربيّة كالأشباح في معرض الحوار، لكن كيف يكون ذلك؟ كيف يتمّ التعبير عن هذا الظلّ في الحوار الألمانيّ-اليهوديّ؟ يُعبّر عنها عن طريق ذلك «الفرق الصغير» بين العبريّة والعربيّة. ما يتمّ إنكاره في الحوار الألمانيّ-اليهوديّ هو هذا الفرق، الذي يفرّق ويربط بين العبريّة والعربيّة، بين اليهوديّة والإسلام.

دراسة يوهان فولفجانج جوته مواضيع الإسلام وتحديدًا تاريخ النبي محمد، دراسة بدأت في سبعينيات القرن الثامن عشر وكانت ذروتها في فترة تأليف عمله الهامّ «الديوان الغربيّ-الشرقيّ» في العقد الثاني للقرن التاسع عشر. نظم جوته شعره من خلال حوار مع قصائد الشاعر الفارسيّ حافظ، بالإضافة لمصادر أخرى من الشعر الفارسيّ والعربيّ القديم، وقد أضاف لكتابه ملحقًا ساحرًا حول حياة اليهود والعرب، حول الشعر التوراتيّ والشعر الإسلاميّ. هذه طبعًا أشهر النماذج شهرة ذات الميول الاستشراقيّة ضمن الثقافة الألمانيّة. الصلة بالمصادر اليهوديّة، بسؤال العبريّة (كـ«اللغة المقدّسة» وكلغة الشعر) لم تنفصل عن الصلة بسؤال العربيّة ولغات الإسلام. ونجد في دفاتر جوته نسخًا وتمارين بالعبريّة والعربيّة والفارسيّة. وقد سُئل سؤال اليهوديّة حينها من خلال علاقة القربى والخلاف مع الإسلام.

لا نقاش على أنّه في هذه التمارين وفي دراسات المبدعين من أمثال هردر وجوته، اللذين بحثوا عن نموذج شرقيّ للشعر والإبداع الألمانيّ، ثمّة استشراق من الوزن الثقيل: تخيّلات وهميّة، مثاليّة، أفكار مسبقة، اختراعات، فضول وجهل- بالمعنى الخصب للكلمة. لا يمكننا أن نفصل صلة اللغة الألمانيّة باللغة العربيّة واللغة العبريّة عن هذا الإرث، الإرث الاستعماريّ. لكن موضوعنا لا يقتصر على هذا الجانب. الإرث الاستشراقيّ في ألمانيا مكوّن في حقبة كان للسؤال الألمانيّ-اليهوديّ فيها صلة مثيرة بالمدوّنة الثالثة، المدوّنة الإسلاميّة. لم يتوقّف هذا الإرث عن التأثير في الأجيال التالية، ومن المفترض أن تكون له آثار منتجة ومبدعة، إلى جانب اتجاهات مدمرة. كانت الدراسات الألمانيّة، كما أشار إدوارد سعيد في كتابه «الاستشراق»، من المدارس الرقيقة التي يُمكن تحمّلها، من بين دراسات الشرق. لكن هذه الدراسات كانت أيضًا استعمارًا معرفيًا، ومشاريع عنف رمزيّ، ارتبطت، كما هو معلوم، بمخططات لاساميّة. لا يمكننا الفصل بسهولة بين تاريخ الفاشيّة وملاحقة اليهود في الثلاثينيّات والأربعينيّات من القرن الماضي، أو مظاهر رهاب المسلمين (الإسلاموفوبيا) مؤخرًا، وبين الجوانب المختلفة للمشاريع الاستشراقيّة في أوروبا وألمانيا تحديدًا.

عندما نتحدّث عن إنكار الثالث في الحوار الثنائيّ الألمانيّ اليهوديّ، وتحديدًا عندما نتحدّث عن إنكاره في علاقات ألمانيا-إسرائيل، نتحدث أيضًا عن إنكار اللغة العربيّة. ولتوخّي الدقة: لا يدور الحديث عن اللغة العربيّة، بل عن كلّ جسم، وكلّ إرث، يميل الحوار الثنائيّ لإنكاره أو نسيانه كي يتمكّن من الانسياب. يقطع هذا الثالث الحوار. قطع الحوار هو، كما ندّعي، لحظة الحقيقة. لا يكون الحوار على مستوى عالٍ في الوقت الذي نتحاور فيه «أنا» و«أنت» بهدوء، واتفاق، وإنكارٍ للذات، بل عندما يصل «هو»، ويحوّل الحوار إلى دوّامة.

الحديث عن العصر الذهبيّ لعلاقات الألمان واليهود، وأطروحة التكافل الألمانيّ اليهوديّ، وبدرجة معينة الصيغ المختلفة للحوارات الثنائيّة، التي صاغها بوبر وروزنتسفايج وآخرون، كلها نحّت الثالث جانبًا كي تتمكن من إخلاء المكان للّقاء بين «أنا» و«أنت». لكن شيئًا ما سيعود لإزعاج هذا اللقاء، للحكم عليه، للتحذير منه، أو للوقوف أمامه، إنّه ذلك الجسم الثالث، الذي يُدعى «هو»، لا اسم له ولا جسد، إنّه شبح الحوار الألمانيّ-اليهوديّ.

III

لكن، كيف يعود الثالث؟ كيف يُدعى إلى المحادثة؟ كيف يدخل ويبدأ بالكلام؟ عندما نتكلم عن الحوار الألمانيّ-اليهوديّ نصغي للّغة العربيّة التي تعود كظلٍّ للّغة العبريّة، أو على شاكلتها، للدّقة. هل تختبئ اللغة العربيّة في الحوار الألمانيّ اليهوديّ خلف اللغة العبريّة، كظلّ، أم أنّها مختبئة فيها، في داخلها؟ تعود العربيّة كالأشباح في معرض الحوار، لكن كيف يكون ذلك؟ كيف يتمّ التعبير عن هذا الظلّ في الحوار الألمانيّ-اليهوديّ؟ يُعبّر عنها عن طريق ذلك «الفرق الصغير» بين العبريّة والعربيّة. ما يتمّ إنكاره في الحوار الألمانيّ-اليهوديّ هو هذا الفرق، الذي يفرّق ويربط بين العبريّة والعربيّة، بين اليهوديّة والإسلام.

يمكننا أن نتعلّم من رسائل فرانتس روزنتسفايج (١٨٨٦-

كان روزنتسفايج يعلم جيدًا من أين أتى شعر يهوذا اللاوي. توقف عند هذه النقطة في الخاتمة التي كتبها لترجمته، وفي الملاحظات التي كتبها عن قصائد اللاوي. ضمن كتابته، تطرّق روزنتسفايج إلى صلة الشعر العبريّ بالشعر العربيّ وتحديدًا إلى علاقة الوزن العبريّ بالوزن العربيّ. علِم روزنتسفايج أنّ شعر اللاوي- بما في ذلك نشيد صهيون- مكتوب بحسب وزن الشعر العربيّ القديم. ليس هذا فحسب، لا بدّ أن روزنتسفايج كان يعلم أن شعر يهوذا اللاويّ تعلّم وذوّت مواضيع وموتيفات كثيرة من الشعر العربيّ القديم، وخصوصًا من الفكر والشعر الصوفيّ.

١٩٢٩) الكثير عن هذا الفرق، وعن الطريقة التي يعود بها كظلّ في الحوار الألمانيّ-اليهوديّ، وكشخصيّة يتمّ إنكارها في علاقات ألمانيا-إسرائيل. روزنتسفايج، الذي سبق وذكرناه كأحد منظري الحوار الألمانيّ-اليهوديّ، كان من أعمدة الفكر عند يهود ألمانيا في النصف الأول من القرن العشرين؛ فيلسوف صاحب إنجازات كثيرة في نقد المثاليّة الألمانيّة، كرّس النصف الأخير من حياته لدراسة وترجمة المصادر اليهوديّة. اعتبر روزنتسفايج هذه المصادر أساسًا لتجدّد الحياة اليهوديّة في ألمانيًا وكذلك لتجديد مشروع مستقبل الإنسانيّة، عبر الحوار بين الألمان واليهود. في كتابه الكبير «كوكب الخلاص» (١٩٢٠) استعرض روزنتسفايج برنامجه لتجديد الفكر الخلاصيّ اليهوديّ-الألمانيّ (اليهوديّ-المسيحيّ) كبرنامج حواريّ. غاب الإسلام طبعًا عن هذا البرنامج. أو للدّقة أكثر: نحّى روزنتسفايج الإسلام عن برامج خلاص العالم.

لكننا نجد بين مشاريع روزنتسفايج، كما ذكرنا سابقًا، مشروع ترجمة مجموعة كبيرة من القصائد الدينيّة للشاعر اليهوديّ-العربيّ يهوذا اللاوي، وهو من كبار شعراء المدرسة الأندلسيّة في الشعر العبريّ بالقرون الوسطى. أمِل روزنتسفايج في أن يكون هذا الشعر أيضًا مصدرًا لتجديد الحياة اليهوديّة والحوار بين اللغتين الألمانيّة والعبريّة. عاش الشاعر يهوذا اللاوي (١١٤١-١٠٧٠) في إسبانيا المسلمة وكتب فيها (رغم أنّ أصلة من قشتالة، الجزء المسيحيّ من إسبانيا) وساهم مساهمة عظيمة في التراث الشعائريّ الدينيّ العبريّ-على أنواعه. شِعر اللاويّ ما زال يُنشد حتى يومنا هذا في صلوات مختلف الطوائف اليهوديّة (الإشكناز والشرقيّين). عُرِف شعره بـ«نشيد صهيون»، على اسم مقطع القصائد الأخير فيه. تحكي هذه القصائد عن حلم الشاعر أن يرحل عن مكان سكناه في الشتات ليعود إلى صهيون، إلى القدس، ليرى أطلال الهيكل ويصلّي من أجل خلاص إسرائيل. كتب اللاوي جزءًا من قصائده خلال مكوثه في إسبانيا، وجزءًا آخر خلال رحلته إلى مصر، وخلال مكوثه في الإسكندريّة، وذلك قبل إبحاره إلى أرض إسرائيل/فلسطين. هل وصل إلى أرض مراده؟ لا أدلة على ذلك. كُتب شعره ليكون بمثابة خطة لرحلة. لكنّ شعر يهودا اللاوي تحوّل، مع مرور السنين، إلى الشعر المؤسس للحركة اليهوديّة القوميّة، إلى الشعر النموذجيّ للصهيونيّة.

لم يتخذ فرانتس روزنتسفايج، الذي قام بترجمة أشعار اللاوي من الألمانيّة إلى العبريّة، موقفًا صهيونيًا كأبناء جيله. أمِل روزنتسفايج حتى ذلك الحين، مثل مفكرين يهود آخرين في ألمانيا، في تحقيق رؤيته للنمو الروحانيّ لليهوديّة كمشروع شتاتيّ، وتحديدًا كمشروع حوار ألمانيّ- يهوديّ. سعت ترجمة شعر يهودا اللاوي (وكذلك ترجمة الكتب اليهوديّة المقدّسة بالتعاون مع مارتن بوبر) لأن تكون مفتاحَ هذا المشروع. كان من المفروض أن يمنح شعر اللاوى توجيهًا ليهود ألمانيا، وبرنامج شعريًا للحياة، وبالأخصّ شعرًا للصلاة باللغة الألمانيّة، ليتمّ عن طريقها تجديد الإيمان بخلاص العالم من قلب حالة الخراب والشتات.

كان روزنتسفايج يعلم جيدًا من أين أتى شعر يهوذا اللاوي. توقف عند هذه النقطة في الخاتمة التي كتبها لترجمته، وفي الملاحظات التي كتبها عن قصائد اللاوي. ضمن كتابته، تطرّق روزنتسفايج إلى صلة الشعر العبريّ بالشعر العربيّ وتحديدًا إلى علاقة الوزن العبريّ بالوزن العربيّ. علِم روزنتسفايج أنّ شعر اللاوي- بما في ذلك نشيد صهيون- مكتوب بحسب وزن الشعر العربيّ القديم. ليس هذا فحسب، لا بدّ أن روزنتسفايج كان يعلم أن شعر يهوذا اللاويّ تعلّم وذوّت مواضيع وموتيفات كثيرة من الشعر العربيّ القديم، وخصوصًا من الفكر والشعر الصوفيّ. لا يناقش روزنتسفايج هذا الأمر سوى بالملاحظات الجانبيّة في كتاب ترجمة شعر اللاوي. لكن في إحدى ملاحظاته، يظهر روزنتسفايج أن النقل الحرفيّ للوزن العربيّ للّغة العبريّة كان مرتبطًا بشعريّة «الفرق الصغير»، أي في إنتاج مبنى جملة خاص ونوع وزن خاص بالعبريّة مبني على نقل حرفيّ بسيط وخلق مقاطع طويلة بنفس وزن المقاطع العربيّة. سادت هذه الطريقة في القرن العاشر في نطاق الشعر العبريّ في إسبانيا،

وشكّلت الأساس للمشاريع الشعريّة للشعراء اليهود، في إطار الشعر الدينيّ والشعر غير الدينيّ. كُتب على أساس هذا الوزن، الوزن العربيّ، «نشيد صهيون» ليهوذا اللاوي. بالإضافة إلى ذلك، الموتيف المركزيّ لنشيد صهيون هو «الأسير»- أسير الحبّ المخلص لعشقه دون حدّ. استلهم اللاوي هذا الموتيف من الشعر الإسلاميّ. الجملة في قصيدة «صهيون ألن تسألي عن أسراكِ» هي، من دون أدنى أشكّ، جملة ذات أصل عربيّة، مستمدة من الفكر والتجربة الصوفيّة. لا يمكن الصلاة من أجل عودة اليهود لبلادهم إلا بصوت شاعر عربيّ أسير لعشقه.

لا يتوسّع روزنتسفايج في تفسيره للمصادر الإسلاميّة لشعر يهوذا اللاوي، ويفضّل بدلا من ذلك التشديد على الصلات بين اليهوديّة والمسيحيّة. لكنه عندما يكتب عن التغريب الذي سيحدثه شعر اللاويّ في اللغة والثقافة الألمانيّة، وعن الشكل الذي سيوقظ فيه شعر اللاوي اللغة الألمانيّة لتصير شيئًا جديدًا، وكيف سيحرّرها من خطر الانغلاق القوميّ، يكتب عمليًا عن شعر عبريّ أصوله في اللغة العربيّة.

الحوار اليهوديّ- الألمانيّ مبني على «فرق صغير» من هذا النوع، على مقطع مُنكر، على صوت منسي، صوت شعر اليهود والمسلمين. لا يولي روزنتسفايج، كما أسلفنا، هذا الفرق القدر الكافي من الاهتمام، رغم درايته بنتائجه. يحذّر روزنتسفايج، في إحدى ملاحظات مقال له حول محاولة الصهيونيّة «إحياء» اللغة العبريّة، من قوة اللغة العربيّة. تلك القربى بين اللغتين العبريّة والعربيّة هي، تحديدًا، التي ستؤدي برأيه إلى ابتلاع اللغة اليهوديّة في الفضاء الإسلاميّ. يحذّر روزنتسفايج، ربما، من العنف الذي يندلع تحديدًا في نطاق الفروق الصغيرة. بهذا المعنى، يمكن أن تكون تحذيراته مبرّرة. هل يُسمح لنا بافتراض شعريّة مختلفة عن الفرق؟ هل يُسمح لنا في التفكير بشكل مختلف عن العلاقات بين اللغتين العبريّة والعربيّة في نطاق الشعر الألمانيّ؟

من الواضح لنا، إذًا، أنّ شعر يهوذا اللاوي، أهمّ الشعراء العبريّين في القرون الوسطى، تأسّس، إلى جانب معرفته الواسعة بالمراجع اليهوديّة الدينيّة، على دراسة وترجمة الشعر الإسلاميّ، وأنّ هذا الشعر كان أساس النهضة الروحيّة ليهود ألمانيا. عندما نفكر اليوم بمستقبل هذا التراث، وبحياة وإبداع اليهود في ألمانيا، أو بمستقبل العلاقات بين إسرائيل وألمانيا، علينا أن نفكّر في ظلال الحوار الألمانيّ-اليهوديّ، وأن نتذكّر الشعر الإسلاميّ، والفكر الصوفيّ، واللغات التي تحدّث فيها اليهود والعرب ونظموا فيها الشعر. الحوار بين الألمان واليهود لن يكون حقيقيًا، ما دام لا مكان فيه للقراءة بالصيغة الثالثة: قراءة باسم هذا الذي يدخل بين «أنا وأنت»، للإزعاج، وللحكم، ولقول الحقيقة.

IV

أردنا طرح سؤال العلاقات بين ألمانيا وإسرائيل بصيغة صحيحة، صيغة تاريخيّة. لذلك، سألنا عن تاريخ الشعوب، عن علاقات اليهود والألمان عبر الأجيال. لكن للسؤال التاريخيّ الصعب مستقبل. التاريخ هو الطريقة التي تحول إليها الأمور. التاريخ هو الطريقة التي تظهر فيها الفرص الضائعة من جديد، وتعود للكلام. عندما نسأل عن علاقات اليهود والألمان إنما نسأل دومًا عن الحوار، الذي كان أو غاب، أُجرِيَ لكنه اختفى في الفراغ أو في الحلول الزائفة. إلى جانب إنجازاتهم الروحيّة غير المسبوقة عبر تاريخهم، ورغم ازدهارهم الاجتماعيّ والاقتصاديّ، علِق اليهود في حوار زائف مع الألمان. لا تنكشف الخطة الزائفة في اضطراب الإصغاء عند الألمانيّ، أو بصعوبة التعبير عند اليهوديّ في الثقافة الأوروبيّة. لقد فشل الحوار أولا وقبل كل شيء بسبب انغلاق الـ«أنا وأنت» أمام العالم. إنّها محادثة العشاق التي وصفها الشاعر الألمانيّ راينر ماريا ريلكه بأنها تُنكر العالم. ينغمس العشّاق في شعر الحب وينكرون من هم في الخارج. أسميناه «الثالث». بحثنا عن الاسم المناسب في التراث ذاته، في الفكر والشعر الألمانيّ، عند هردر وجوته (كان يجب أن نضيف إليهم طبعًا شعر فريدريخ هلدلين الذي دعا الشعراء الألمان للإبحار إلى «آسيا»). التحوّل باتجاه الشرق هي من عناصر تجديد الثقافة الأوروبيّة، إلا أنّ هذا المشروع اصطدم هو الآخر بالمشروع الاستعماريّ. علينا أن نطرح السؤال الاستشراقيّ بصيغة جديدة، كذلك علينا أن نطرح السؤال حول الحوار الألمانيّ-اليهوديّ من وجهة جديدة، أي من خلال سؤال جديد عن الشرق. هل علينا أن نسأل من جديد عن الشرق (أورينت) كي نجد الوجهة؟ بالتأكيد. لكن كيف نفكّر بالشرق؟ علينا العودة للتراث، لتاريخ الفكر والشعر الغربيّ وإيجاد شهادات عن تلك الإمكانيات المفقودة لتحوّلات في الفكر والكلام، وصياغتها بشكل عنيد ونقديّ، وباحترام للروح الدفينة في ذلك التراث.

لم نجب عن هذا السؤال إلا برؤوس أقلام، وتحديدًا بفصل قصير عن معنى ترجمة المفكّر اليهوديّ-الألمانيّ فرانتس روزنتسفايج لقصائد الشاعر العربيّ اليهوديّ يهوذا اللاوي. كتب اللاوي في آخر أيامه نشيد صهيون وضمّن فيها صلاته لخلاص إسرائيل بشعر أصوله موجودة، بالأساس، في الشعر والفكر الإسلاميّ. عندما نطرح سؤال العلاقات بين ألمانيا وإسرائيل، نسأل عن الحاجة لصيغة (شرقيّة) جديدة لهذا السؤال، ليخلّصها من الصيغة الزائفة، والمفهومة ضمنًا، للحوار. لذلك نطرح السؤال بصيغة ثالثة.

ترجمه عن العبرية: إياد البرغوثي